نقد الينبوع

(٢)

موسيقى العقل العام موسيقى خالدة أبدية ، موسيقى مبدعة خالقة ، ما فتئت منذ الأزل ترتل من وراء المادة أناشيدها القدسية فى معبد الكائنات على نحو من النغم وضرب من الشدو والاهازيج هى فوق ما تسمو اليه المادة وفوق ما تتداركه العقول .

والبشرية بطبيعتها ليست مستعدة لتلقى أناشيد الروح فى بعض معانيها السامية اللهم إلا فى بعض أفراد قلائل ارتفعت بهم الطبيعة فى الخلق والتسوية فانحدروا الى الوجود فى استعدادات خاصة أهّلتهم لاستماع ما تنغم به السماء من لحن ورنين وهزج .

وهؤلاء وإن كنت تراهم منخرطين على الصورة الانسانية إلاّ أنهم فى معنويتهم شىء غير ذلك : فهم نوع آخر من الناس يطابقونهم فى الصورة والرسم ، وينافونهم فى الدقة الوجدانية واستشفاف صُور الغيوب . وهم إذ يلقون بأردية المادة الكثيفة عن أنفسهم تُخلق لهم احساسات غير احساساتنا وأذواق غير أذواقنا وآذان غير آذاننا ، وما يلبثون أن تنار لهم ظلمات العدم وتشع لهم الموجودات وتهفو أمامهم رفارف العروش السماوية ، فاذا هم الكهنة الخاشعون فى معبد الطبيعة يستوحون ما يرفّ على جوانبها من روعة وجمال وجلال ، وما يلبثون هنا أن يستحيلوا الى مزامير وقيثارات ينفثون على أوتارها ما يحسّون به من صُور الوجود وجمال الطبيعة ومشاهد الخلق .

* * *

هؤلاء هم الشعراء ، فأمّا اذا كان هناك انسان لم تتسق له هذه الصفة ولم يستأهل بعد هذه الميزات إما عن طريق الاستعداد أو الرياضة فهذا شعره لا يعدو أن

يكون نوعاً من التقيق إن دلّ على شيء فانما يدل على ان صاحبه مظلم النفس ميت الروح ، أو هو على تعبير آخر أضحوكة بشرية ، عابثته الطبيعة فأخرجته على صورة شاعر لتضحك عليه الناس . . . وهو عبث في الواقع طريف قد يكون من سخريات القدر ، وقد تكون لهذه السخرية أثرها العادل الحكيم ليتبين الناس الفرق بين تغريد الكنار ونقيق الضفدع .

أما أنا فقد نشدت هذا الشاعر الفريد منذ ستة عشر عاماً في كتابي (المفاضلة) فلقد كان شعراؤنا إذ ذاك لا يزالون واقفين عند هذه الضروب البالية الرثة : ضروب المدح والهجاء والرثاء والغزل ، تلك الضروب التي جاؤا بها تقليداً عن أجدادنا العرب الأبرار . ومن هذا الحين فقد صدفت نفسي عن الشعر والشعراء في مصر حتى أتيح لي مطالعة (الينبوع) للدكتور أبي شادي ، فاذا هو مزمار حقاً من مزامير الطبيعة وقيثارة حلوة النغم عذبة الترانيم ، واذا هو الذي ننشده وننشد أمثاله للبيئة المصرية ، إذ البيئات الاجتماعية أيّاً كانت هي أحوج ما تكون قبل كل شيء الى شعراء من هذا الطراز يفتحون لها طريق الحق وطريق اللانهاية المغلق المحجب لتستلهم معنى الحياة وحقائق الوجود ، لتتذوق بعد ذلك أنغام الكون الشجية الزاخرة وصور الجمال المقنع وطيوف الاحلام السابحة في الفضاء .

وعسير عليّ أن آتيك هنا بالموجز أو ما يشبه الموجز عن صورة (الينبوع) فهذا لا يتسع الا للكثير العديد من الصحائف . انما جهد ما نقوله إنه صور منتزعة من أحشاء الكون الرائع دلت اليها الشاعر في حساسية وتوثب واقتدار أتى منه بالمعجز والمطرب فيما سما اليه من براعة تصوير وحلو لحن وزين صوت .

والدكتور أبو شادي فياض المعين طافر الخيال بعيد الهمة ويوشك (الينبوع) وما فيه من غزارة واتساع خيال أن يرمز الى رجل خارق في المجهود : فهو وقد أخذ يصيغه وينضح عليه من ذهنيته وعصارة نفسه قد أتخمه بالتكاثر في شتى الصور والموضوعات حتى تعود فتتخيله لوحة الدنيا . . . ففيها السموات والأرض والغابات والأشجار والأنهار والكواكب والنجوم ، ولكن مع هذا لا يفوت أبا شادي أن يرسم على « اللوحة » حتى الفراش وحتى الذباب والحشرات وهي ترف على مسارب الأرض ومسابح الفضاء ! فكأنما هو يريد أن يستوعب صورة مجلى الوجود لينفثها شعراً على صفحة الطرس !

وحقاً فأنت إذ تطالع (الينبوع) فأول ما يتجلى لك أن صاحبه كثير التحويم والتحليق فى الفضاء فهو كثير الاقامة فى السماء .... وكأنى به يستأمن لهذه السكنى فراراً من رؤية المآسى الاجتماعية على الأرض ، إذ لا يكاد ينزل اليها حتى تقلقه المهاترات الحزبية وأوهام السياسة التى تعانيها البلاد . وهذه الناحية لا يفتأ يولّيها من نفسه عنايةَ الشاعر المصلح فما ينفكّ يصبّ عليها نيران النقد الصارم ، وما ينفكّ يلفحها بشواظ السخرية والتهكم اللاذع — فهو يقول :

كم يعبث القدرُ العَتِىُّ ، وكم له ... لهوٌ من الأبطال والأبدالِ
يدعُ الحقيرَ يلوح أعظمَ فاتحٍ ... وسواه قام بدورهِ المتعالى

ويقول :

اذا استوى الناسُ فى فضل وصنقصةٍ ... فقد تساوَى البيانُ العذبُ والبكمُ

ويقول :

لن ينال الشعبُ آمالاً له ... فى حِمى التغرير أو قيد الوَسَنْ
انما الشعبُ حِمَى أفراده ... فاذا أفرادُهُ هانوا وَهَنْ

ويقول :

أيها الأحزابُ أنتم داؤنا ... د تفرّقتم حيارَى فى الزَّمَنْ
فتركتم مصرَ لا تعرفُ مَنْ ... مِن بنيها يُرتجَى أو يؤتمنْ
لو وقفتم مثلَ سدٍّ رائع ... ثابتِ البنيان مرفوع القننْ
خشع الدهرُ لكم فى نبلكم ... وتخلى عن غرورٍ وضغَنْ

وهو فى هذا المجال يلمز، وليس من حقنا أن نكشف عن ألغازه ما دام هو يرى ذلك لأمرٍ ما خاصاً بنفسه .

وشاعرنا ولوعٌ بالجمال اليونانى فهو يتشبث « بآثينا » دائماً على حين أنه قلما يلتفت الى « منف » . ولعل روعة منف وما يسكب عليها من جلال الأبدية جعلته يفرّ منها ليعوذ بما ينتشر على جوانب الخيال الأثينى من أنوار الحياة وأضواء الجمال ومشاعر الحب والأمل الباسم ، ولذا فأنت تراه قد اندفع وراء الأساطير اليونانية فطفق يرسمها بريشة الشعر رسماً أدنى اليك « الميثولوجيا » فى صورة الواقع لا فى

صورة الخيال : فهذه قصة « أرفيوس ويورديس » الى جانبها « هرقل وديانيرة » و« دنيال وجب الاسود » الى « موسى فى اليمّ » مما لا يتسع المقال لتعدادها أو وصف ما اشتملت عليه من لذة الفن وطريف الوقائع .

و (الينبوع) - على الجملة - هو « مرسمٌ » مفعمٌ بالدقيق والجليل من الصور وهى فى كلياتها تنزع الى عبادة الجمال وتغذية الروح والفن اللهم الا بعض صور قد شوشت على « المرسم » رواءه وصفاءه ونعنى بها كثرة التشكى من البيئة ، والغريب مع هذا أن نقاد الشاعر قد جاروه فى هذه اللوعة من التشكى ، وأنا لا أعترف بان هنالك مادة للبغضاء تؤثر فى نفسية الشاعر الجديد إذ ليس ثمت علاقة بين دواوين الشعر التى تنفح بالجمال والطهر وتوحى بالخيال والتسامى وبين هذه الحالات المظلمة ... ان الشاعر الذى يسبح فى الأثير ويقول :

هذى الطبيعةُ مَوئلى ومعلمى وأنا الأبرُّ بروحها الفنَّانُ .

يجب أن لا تتأثر نفسه بهذه الحشرات الآدمية التى تؤذيه وتلذعه . أجل ، يجب أن يتنزه الشعر وأن ترتفع صحائفه عن مثل هذه الشكاوى التى لا تلائم دواوين الشعر المقدس الزكى .

وقبل أن نختتم هذا المقال نحبّ أن ندل على أن شاعرنا بينا هو يصدح ويغرد مسترسلاً فى صدحه كانت تدركه « بحة » قصيرة أسرع ما تزول عنه فما تلبث قيثارته أن تستجمّ حتى تعود لها قوتها ورنينها ، ونعنى بها بعض الشطرات الأخيرة من الأبيات ، مثل :

« فانساب مِن روحى ومِن إنسانى »

ومثل : « وكأنّ هذا الريف ليس يُعانى »

ومثل : « غدر كأن اليمّ منه يُعانى »

والشطرة الأولى يدركها خلل فى المعنى والثانيتان تدركهما ركاكة التعبير . ومن حسن الحظ أن هذه المآخذ قليلة بل قليلة جداً فهى لا تكاد تحسب لندرتها لولا أننا أمام شاعر قوىّ قرأنا شعره فأجللنا فيه النبوغ والقوة والتجديد ومن ثم أشفقنا على هذا الاديم الصافى الرقراق أن تعكر عليه مثل هذه الخدشات التافهة ؟

عبد العزيز عتيقى

* * *

نشكر لناقدنا الفاضل حسن ظنه بأدبنا وصفاء قلمه البليغ . ولقد آخذنا وآخذ غيرنا من الشعراء لشكوانا من البيئة ولو كان فى ظروفنا لقدّر العوامل النفسية التى أوحت الينا بشعر البيئة ، وهو على أية حال صورة قوية من الشعر الوجدانى ومرآة لأيامنا ، فليس من الخير إغفاله . وأما عن شعرنا المصرى فهو منبث فى مؤلفاتنا وفى مقدمتها (وطن الفراعنة) . وأما عن التعابير التى أشار اليها فلعل نظرة أخرى الى صياغتها والى دلالتها فى مكانها من القصيد تقنعه بعكس ما ذهب اليه فى حكمه الأول، وبأنها أعمق معنى مما تلوح وأسلس موسيقية مما تبدو، وإنا لنخجل من نقاش أديب فاضل يأسرنا بمثل هذا التلطف والاريحية . وعلينا الآن أن ننظر فيما وجّهه غيره من حضرات النقاد من المؤاخذات على صفحات الجرائد والمجلات .

فما أُخذ علينا ما رواه الدكتور زكى مبارك فى (البلاغ) من أننا نعتذر عن الاكثار ، وأننا لانتشر كلّ ما ننظم بل مختارات منه ، وأن لنا كل عام نحو ثلاثة دواوين ، وأنه لا مفرّ لنا من أن نعترف بأن الاجادة توجب التروّى وتفرض على الكاتب والشاعر اطالة التأمل فى سطور النزعات الوجدانية والعقلية قبل تدوين ما يصدر عن العقل أو يحيك بالوجدان ، وأن براعتنا هى فى وضع « التصميمات الفنية » إذ أننا نضع فى الاغلب عناوين قصائد وكان يكفى أن تكون حياتنا وقفاً على « تجسيم » تلك الاخيلة الطريفة التى عنونّا بها بعض قصائدنا القصار ، وأنه لا عذر لنا لأن دنيا الناس لا تسألنا أن نصدر فى كل عام ثلاثة دواوين ....

أما أننا نصدر فى كل عام زهاء ثلاثة دواوين فغير صحيح ، وحسبنا أن نعين الدواوين التى صدرت لنا فى السنوات العشر الاخيرة وهى صورة لإنتاجنا الطبيعى : ديوان مصريات (ديسمبر سنة ١٩٢٤) ، أنين ورنين (مايو سنة ١٩٢٥) ، الشفق الباكى (يولية سنة ١٩٢٧) ، مختارات وحى العام (ديسمبر سنة ١٩٢٧) ، أشعة وظلال (ديسمبر سنة ١٩٣١) ، الشعلة (ديسمبر سنة ١٩٣٢) ، أطياف الربيع (سبتمبر سنة ١٩٣٣) الينبوع (يناير سنة ١٩٣٤) . ولو فرضنا وكانت دواوينا بالكثرة التى يتخيلها الدكتور زكى مبارك لما كان لهذا أىّ شأن بالنقد الأدبى المستقل الذى تعنيه قيمة الانتاج وحده من الناحية الفنية دون أن يتعرض للتأثر باعتبارات ثانوية ، وليفرض صديقنا أن هذه الدواوين لشعراء متعددين ثم ليسأ بعد ذلك أصحابها وليحكم عليها من الوجهة الفنية الصرفة .... كذلك غير صحيح اننا قلنا إننا لا ننشر كلّ شعرنا بل

مختارات منه ، إذ الواقع عكس ذلك فنحن لا ننشر شعرنا ارضاءً للناس وانما ارضاءً لعواطفنا وايماننا ، فلا موجب إذن للحذف منه ما دمنا لا نقرض الشعر عن رغبة أورهبة أومرضاة للناس . والقول بأننا نعتذر عن الاكثار غير صحيح كذلك ، فنحن لا نعتذر عن شيء وانما لنا مذهبنا الذى نشرحه لمريدينا عن فلسفة الشعر وانتاجه ولا يجوز أن يسمى هذا اعتذاراً عن الاكثار .

وأما عن الاعتراف بأنّ الاجادة توجب التروّى وتفرض على الكاتب والشاعر إطالة التأمل فى سطور النزعات الوجدانية والعقلية قبل تدوين ما يصدر عن العقل أو يحيك بالوجدان فما لا يشكّ فيه أحدٌ . ومَنْ ذا الذى أخبر الدكتور زكى مبارك أننا نفعل غير ما يوصى به ؟ لقد تمرّ علينا الشهور دون أن ننظم الاّ شيئاً يسيراً ولكننا نستوعب ونختزن فى عقلنا الباطن شتى المَرَائى والمعانى والأخيلة والألطياف والأضواء والظلال حتى اذا ما وُجد الباعث الشعرى تدفقت فى أبيات الشعر وكأنها مرتجلة ولكنها فى الحقيقة غير ذلك ، وقد يكون نفس اكثارنا اقلالاً بالنسبة لتأملاتنا وللبواعث الوجدانية التى لم نعبر عنها بعد . فمن الخطر النقدى إذنْ أن يتسرّع صديقنا الدكتور الى مثل تلك الملاحظات والأحكام التى لا نتيجة لها سوى زعزعة ايمان الشعراء (وعلى الأخصّ شعراء الشباب) بطاقتهم الشعرية وفنّهم ، فيزداد فيهم التردد الشائع ويذهبون ضحايا الخوف كما ذهب غيرهم من قبل ، أو على الأقل تصدأ ملكاتهم الفنية ويذهب تأميلنا فيهم سدًى .

إن التأمل الذى يوصى به صديقنا الدكتور هو طبيعة كل نفس شاعرة بفطرتها ، حتى اذا حان لها أن تنظم تدفّقتْ بسجيتها ولم تتصنع النظم باسم اطالة التأمل كما هو دأبُ شعراء الصناعة ، فالتأمل يجب أن يكون سابقاً للحالة الشعرية عادة وهذا هو المشهود عند كل شاعر مطبوع ، واذن فالكلام فى ذلك تحصيل حاصل إن لم يكن الغرض منه تثبيط الانتاج باسم التروّى والتأمل ، ولا يوجد شاعر مطبوع فى حاجة الى مثل هذه النصيحة لأنه ينظم بسليقته ولا يطاوع غيرَ وحيها . فلم يبق الا توجيه مثل هذه النصيحة الى الناظم الصناعى ، والأولى بأى ناقد أن ينصح مثل هذا الصانع بالانصراف عن قرض الشعر ومسخه ، فهذه وحدها هى النصيحة الحاسمة الواجبة . وبعد كل هذا لا يعنى الفنّ غيرُ الاجادة الفنية ، فكلُّ ملاحظةٍ نقديةٍ عن الاكثار ضائعةٌ لأن طاقات الشعراء تختلف اختلافاً واضحاً ، ولم نسمع أنّ هذه البدعة النقدية التقليدية عندنا لها أيُّ نظيرٍ فى آداب الأمم الأخرى التى

نقرأ عن انتاج شعرائها المدهشات ولا من مؤاخذ ولا منتقص[1] ... ومن العجيب أن صديقنا الدكتور يتطوع لا بداء هذه الملاحظات التى تشعر بالتأريخ الأدبى عن شاعر معاصر وهو غير ملمّ بعادات ذلك الشاعر ولا بطبيعته الشعرية مما توحى به الملازمة والمخالطة الأدبية الطويلة ، وهذه الجراءة على مثل هذا اللون من النقد من الخطورة بمكان، والأولى بصديقنا الفاضل أن يترك ذلك لأصدق الناس بالشاعر المنقود فهم أحق بانصافه لأنهم أعرف بشمائله وخصاله الفنّية وبالمؤثرات الشعرية وتفاعلها معه.

وأما عن القول بأن براعتنا هى فى وضع « التصميمات الفنية » إذ أننا نضع فى الأغلب عناوين قصائد وكان يكفى أن تكون حياتنا وقفاً على « تجسيم » تلك الأخيلة الطريفة التى عنونّا بها بعض قصائدنا القصار فما لا ينهض دليلٌ عليه، وهذا النقد عجيب من شاعر ينادى بكراهيته للثرثرة ويفتخر بأنه ارتضى من صور الايجاز أن يصف ظلامَ الليل ببيتٍ فردٍ، فلم يزد على قوله :

وجنَّ علىّ الليلُ حتى حسبتُه جفاء كريمٍ أو رجاء لئيمِ

نحن نبغض الثرثرة بما لا يقلّ عن بغض الدكتور زكى مبارك لها ، وفى شعرنا الكثير من مُثُل الاكتفاء والتركيز ، ولخيرٌ لنا ألف مرةٍ أن يظهر شعرنا بهذه الصورة من أن يكون ضخماً أجوف تعدّ منه عشرات البيوت ولا يطلّ الشعرُ الاّ من بعضها ... فازدحام أى ديوان لنا بشتى الموضوعات الشعرية فى إيجاز غير مخلٍّ هو مما يزيده دسامةً وقدراً ولا ينتقصه بحال من الأحوال . ويجب أن يكون صديقنا الدكتور آخر من يتحدث عن القصائد القصار والقصائد الطوال ، وليكن نقده منصبّاً على قيمة الشعر الفنية وحدها . ومهما يكن إنتاجنا فليفترضْ الناقد المستقل ـ كما ذكرنا من قبل ـ أن اسمنا لا وجود له على ما ننتجه من آثار شعرية، وليحكم عليها بعد ذلك بما تستحقه مميزاتها الفنية فحسب .

* * *

ومما أُخذ علينا ما رمانا به ناقدٌ أديب من «عدم الاتساق فى المعانى والخيال» دون أن يذكر شاهداً يمكن أن يقف على قدميه أمام النظرة الفاحصة . مثال ذلك أن يعاب علينا من قصيدة «أرفيوس و يورديس» (ص ٢٥) هذا البيت :

---

(١) انظر مثلا ما كتبته الجريدة السورية اللبنانية (عدد ٩ آذار سنه ١٩٣٤) ص ٧ ، وهى أكبر الصحف العربية اليومية فى أمريكا .

سخت الطبيعة والسخاء بذاتها لكننا قد لا نرى كلماتها

فيقول الناقد انه لا يفهم معنى «السخاء بذاتها» ، وهو تعبير يشير الى غناها والى جودها الفطرى فان تكييفها لا يشعر بالتقتير فى إبداعها ، ومذكان مبدعُها سخياً فى تكوينها كانت هى سخية فى سجيتها ، ولا نرى أى ابهام فى هذه المعانى الضمنية . وقد خطأ قولنا « لا نرى كلماتها » لأن الكلام سبيله الى الاذن حيث تسمعه ولكن العين لا تراه إذ هو ليس من قبيل المرئيات المادية حتى تراه العين أو لا تراه ... ومثلُ هذا النقد لا يقوله الا جاهل بالمجاز القرآنى ، فكيف ينفق ذلك وهذه الجراءة على النقد وهى جراءة شائعة مع الأسف ؟ أيشق على أىّ متذوّق للأدب أن يفهم قولنا «لكننا قد لا نرى كلماتها» بمعنى «لكننا قد لا نتبين آياتها» ؟ وهذا سياق الأبيات :

سَخَتْ الطبيعةُ والسخاءُ بذاتِها لكننا قد لا نرى كلماتِها
فاذا تَغَنَّنُ (أرفيوس) مثالُها إذ ضَمَّنَ اللحنَ الجديدَ صفاتِها
بلغَ الكمالَ بهِ وعادَ كأنه غازٍ تحدّث نارهُ عن ذاتِها
وكأنّ إكسيرَ الحياةِ بلحنهِ وضياعُ هذا اللحن أصلُ مماتِها
فاذا بجنّةِ (يورديسَ) أمامه فى الغابِ شبهَ غريقةٍ بسباتِها
فأطلَّ مِنْ فرحٍ عليها عازفاً نغماتهِ ، بل عازفاً نغماتِها
لكنها لم تُسْتَثَرْ بنشيدهِ وهو الذى أعطاه سحرَ حياتِها
فرأى المماتَ مروّعاً متكبراً فهوى يودّع روحَها برفاتِها

وهذا الموقف معروف جيداً لكلّ مطّلع على قصة (أرفيوس ويورديس) وما تقصّه من براعة أرفيوس الساحرة بموسيقاه ، ولكن ناقدنا الفاضل شغله من كل هذا حرف جر فقال إنه لم يسمع أبداً « أن شخصاً غارقٌ بكذا ولكنه غارق فيه ، فالباء لا تستعمل فى هذا الموضع واستعمالها خطأ ... كما أن التعبير فى ذاته عامىٌّ مبتذل » .

وجوابنا على هذا النقد أن إنابة حروف الجرّ بعضها عن بعض وخصوصاً فى الشعر جائزٌ ما دامت هناك قرينةٌ كافيةٌ بل هو مستملَحٌ إذا كان من ورائه تجميلٌ للموسيقى الشعرية ، وهو الواقع فى ذلك البيت . وأما عن عامية التعبير

فلا نوافق عليها ، بل هو تعبيرٌ شعريٌّ يجرى على ألسنة الخاصة كما يجرى على ألسنة الجمهور ، وهذا لا يعيبه ولا يحول دون استعماله فى مثل هـذا الموقف متى جاء طبيعياً أثناء الوصف ، وكم من تعبير شعرىٍّ شائع يستملح تضمينه فى الأوصاف الشعرية فيساعد على تلوينها بالروح التى يريدها الشاعر .

وانتقد حضرته قصيدة « من القلب » (ص ٢٨) فقال إنّ أولها يناقض آخرها فى حين أنها وحدة منسجمة متسلسلة المنطق ، وهى طويلة لا تحتمل النقل . وليس ثمة تناقض بين اندماج الشاعر فى الطبيعة التى يمدّها عزاءه وبين شكواه من بيئته التى يعدّها عند ما يُشغل بها كالمقابر ويخيل اليه أنه أحد موتاها . ولم يهجُ الشاعر نفسه بذلك وانما عبر بصدق عن احساسه فى حالتين مختلفتين وتدرّج بالقارىء الى ذلك ولم يصدمه بهذا التباين صدماً . والشاعر الصادق التعبير عن احساساته ، الذى لا يعرف التصنع ، هو وحده الذى يحترم نفسه كيفما كان تعبيره ، ولن يكون فى ذلك معنى الهجاء بحال من الأحوال .

وخطف من قصيدة « لهو القدر » دون أية اشارة اليها هذا البيت :

ويصفّق المتفرّجون وكلُّهم مَيْتٌ كتصفيق المكان الخالى !

فقال إنه حائرٌ فى تفهُّم الروح التى أملتْ هذا الشعر وانه لا يظن فى الدنيا من يجيز عقله أن الميت يتفرج ، ولم يجد فى اللغة أن المتفرجين بمعنى المشاهدين ، كما أنه يضع جائزة على قدر حاله لمن يُفهمه كيف يصفق المكان الخالى !

ويرى القراء هذه القصيدة الفريدة فى رسمها ومعانيها بالصفحة ٣٣ من (الينبوع) وسيرون عند درسها كيف يتلمّس ناقدنا الفاضل أسبابَ النقد السطحى بينما تَغيبُ عنه الخواطر الشعرية التى استوقفت انتباهَ كثيرين من محبى الشعر ونقاده . ومع أننا لا نطمع فى ربح الجائزة التى وعدَ بها ما دامت هذه هى نظرتُه الى الشعر ونقده فنحن نتطوع لنقول إن البيت الذى عابه هو نهاية التجسيم لغفلة أولئك المتفرجين وهَوان حصافتهم المفقودة ، فتصفيقهم هو من الوهم كما يصفق المكان الخالى فى توهم الشاعر المتخيّل . وقد انتقد لفظة « المتفرجين » وقال إنها ليست أصيلة فى اللغة بمعنى المشاهدين ، وهى فى الواقع بمعنى الممعنين فى المشاهدة كأنما يقتنصون لها الفُرَج ، وهى كلمة قوية الدلالة سائرة على أقلام الخاصة ولا يعيبها انها عصرية الوضع فيما نعلم .

واختطف كعادته هذا البيت من قصيدة « المهزلة » (ص ٣٦) دون اشارة اليها :

سخرتُ من بيئتى لمّا برمتُ بها ونُحْتُ لكنْ نواحى كلّه كَرَمُ !

فقال إن هذا شيء مضحكٌ ، فما أبعد الساخر عن النواح ، وانما الساخر من غيره محتاج لشيء من مظاهر الأمر والقوة والنواح ليس من شأنه . وكل هذا هيّن بجانب النواح الذى كله كرم ، وما علمنا نواحاً كهذا أبداً ولو كان نواح المتنبي فما من علاقة بين الكرم والنواح .

ونحن ندع للقراء أن يروا بأنفسهم مبلغ صحة ناقدنا فى دعاويه عند الاطلاع على تلك القصيدة كاملة ، ومع ذلك نكتفى بنقل الأبيات التالية منها فى شكوى الدهر والبيئة :

أطلّ دمعى وماء العين مضطرمٌ وهاج وجدى وسُخطُ القلب محتدمُ
أنا الذى فى شكاتى يزأر الشَّمَمُ وفى بكائى ونارى يُهزَمُ الألمُ
سخرتُ من بيئتى لمّا برمتُ بها ونُحتُ ، لكنْ نواحى كلّه كرَمُ
لستُ الذى إن تغالَى فى محبته فساءه الدهرُ عُمْراً ناله النَّدَمُ
لن يُنْصَرَ الحقُّ الا فى مصارحةٍ ولن تعيشَ على علاتها الأُمَمُ
أنا ابنُ مصر ، فما لى لا أقرّعها ؟ هى الطفولةُ حاكى حالَها الهرَمُ

وقد جاء فى هذه القصيدة أيضاً هذه الأبيات :

لولا ضآلةُ مَنْ ضجُّوا ومن صخبوا ما عاث فينا سفيهٌ أو هوَى علَمُ
أعززْ علىّ بأن ألقى كرامتهم وَهْماً ، وقد صغروا شأناً كما وَهَمُوا
مَنْ لم يصونوا بأيديهم كرامتهم فليس يجديهمو سمعٌ ولا صَمَمُ
هان الرجالُ وساد الساخرون بهم لولا التهيُّبُ ما هانوا ولا انهزموا

وفى هذه الأبيات ما يكفى لتصوير حالات الشاعر النفسية ما بين سخط وألم ونواح فى صميمه الصفح الكريم عن الجناة ، ولكن ناقدنا الفاضل فى دنيا ضيقة من نفسه فهو عاجز عن متابعة الشاعر فى وجدانياته والاندماج فى أحاسيسه المختلفة التى تنتظمها شكوى دهره وبيئته . وبهذه الروح الجامدة انتقد هذا البيت :

مَنْ لم يصونوا بأيديهم كرامتهم فليس يجديهمو مِمْعٌ ولا صَمَمُ

فقال : ومتى كان الصمم مجدياً ؟ شيئاً وفضّل أن يصاغ البيت كما يأتي :

مَنْ لم يصونوا بأيديهم كرامتهم فليس يجديهم قولٌ ولا كلمُ

وهذا من أبجديات النقد الغريب الذى يولع به مَنْ يخالون الشعراء طائفةً من الأغبياء لا نصيب لديهم يذكر من الثقافة البيانية ولا من غيرها ! وإلا فكيف يقول أديب بهذا التحوير الى معنى لا يريده الشاعر بينما كلمتا « قول » و « كلم » تؤدّيان معنًى واحداً ، وبينما البيت الأصلى صريح الاشارة الى مواقف وطنية معروفة للمعاصرين ؟ ومن ذا يقول إن الصمم لا يجدى فى مواقف ؟ اذا كان صاحبنا الناقد يقول هذا عن ايمان فما أضيق خبرته بالحياة وتصاريفها !

ومثال آخر لولوعه — بل للولوع الشائع بين مَن يتصدرون للنقد الأدبى — بالأبجديات نقده لهذا البيت من قصيدة « اللحود » (ص ٣٥) :

لقد علّمَ الدنيا الحضارة حينما تَمَشّى بها ليلٌ من الجهل مُنْأدُّ

فقال ما كان أغنانا عن تفسير كلمة منأدّ لو أننا وضعنا مكانها لفظة ممتدّ ، فهل غاب عنه أننا آثرنا اللفظة الأولى لموسيقيتها فى هذا الموضع من البيت ؟

وانتقد فى قصيدة « المستبدّ العادل » (ص ٨٠) أننا أكثرنا فى زعمه من الألفاظ الموحشة التى لا تناسب التهانىء فى شىء كلفظة أعولت — قتلت — موتى — قاتل — الخ .

ولا ندرى من قال لصاحبنا إننا من شعراء التهانىء والأمداح ؟ ! انّ القصيدة التى يشير اليها قصيدة وطنية اجتماعية فى صميمها تصوّر لمليك البلاد النكبة التى يعانيها رعاياه بين الفاقة الشديدة فى الريف والتناحر السياسى الذى فكك أوثق الروابط بين الاصدقاء والأسر ، وليس لكل ذلك الا لغة صريحة تأبى المواربة والتصنع وقوامها الصدق والاخلاص ، فليهنأ غيرنا بالتصوير المخادع وبألفاظ التزويق والنعومة ... ويا ضيعة الشاعر الذى ينحدر الى مرتبة الممثل المتصنع !

وقد ادّعى سامحه الله ان القول شطّ بنا ونأى عن الصواب حين قلنا من قصيدة « أمير الصعيد » (ص١٢٧) :

أميرَ النيلِ والوطنِ المجيدِ لتهنأ بانتسابكَ للصعيدِ

وقال إنه كان الاولى تأدباً أن يكون الصعيد هو المنتسب للأمير فان الصعيد يتشرف بذلك الانتساب والعكس أن يكون الأمير المفدى منتسباً للصعيد . ونحن نعتبر هذه الملاحظات من الملق الرخيص الذى نأباه كل الاباء ، فصعيد مصر هو صعيد مينا وأختون وهو جدير بأن ينتسب اليه أى ملك فى الدنيا وأى أمير . ومع ذلك فالقصيدة صافية الروح والادب وإن تجاهل ناقدنا هذه الأبيات الختامية لها :

مَعَابدُ للفخارِ بكلّ ركنٍ ودورٌ أهلُها أهلُ الخُلودِ
فان نُسِبَتْ اليكَ فأنتَ منها بنسبتكَ الفريدُ الى الفريدِ
فتيهى يا ربوعاً توَّجَتْهَا أيادى الشمس بالشِّعْرِ النضيدِ
وعيشى للامارةِ ذُخرَ مِصرٍ فانكِ أنتِ مُلْهِمُ كلّ عيد

وانتقد البيت التالى من قصيدة « أنشودة الحزين » (ص ١٣٢) :

أُعْطِى زكاة حياتى ما أخلّصهُ من الحياةِ وأُعطى الحبّ مَن شاءوا

قائلاً : فالرجل يقول إنه يعطى الحب لكل راغب حتى ولو لم يكن مستأهلاً لك الحب ، فما أرخص حبه الذى يهبه من يشاء بغير تمييز ولا أحقية ... وهذا مثال للمغالطة الشرحية والنقدية ، كما يتبين لكل مطلع على القصيدة المذكورة ، وحسبنا أن نذكر بيتين منها سبقا البيتَ الذى أشار اليه ناقدنا :

إنى لملكُ النوعى[1] لستُ أجحدُه ولو جزائىَ ضراءٌ وضراءُ
فى عزلةٍ كصلاة لا انتهاءَ لها حين الطبيعةُ بكماءٌ وغنّاءُ
أعطى زكاةَ حياتى ما أخلّصهُ مِنَ الحياة وأعطى الحبَّ مَنْ شاؤوا

أرأيت كيف يفسد الشرح المشوّه والاقتباس المبتور المعانى الأصيلة ؟

وانتقد قصيدة « وحوى ! وحوى ! » (ص ١١٥) وهى من شعر الطفولة المصرىّ الصبغة ولم يقل فى نقده شيئاً سوى أنها عبث ، مع أنها تنطق بفرحة الأبوة وبفرحة البنوّة معاً . ونحن لا نتردد فى أن نقول إن الذى لا يتمشى خياله مع الأبيات التالية انما هو فقير فى روحه الشاعرة إن لم يكن عديمها :

---

(١) النوع الانسانى

غنّوا فرَحاً والليلُ قريرْ
فى صَدْحَتِهمْ إلهامُ بَشيرْ
رمضانُ بهمْ زاهٍ وسعيدْ
فيكافؤُهم مِن حلوى العيدْ
فى طلعتهم والدهرُ بَخيلْ
نِعَمٌ سلفتْ بين التقبيلْ
فأرى فيها أمسى المحبوبْ
وأحيّيها صيحاتِ قلوبْ!

وهذا ما اعتبره ناقدنا العزيز كلاماً لا معنى له !

وانتقد ما عدّه كثرة ترديدنا للفظات معيّنات كالظلّ والضوء والأطياف وما اليها من ألفاظ كانت تتكرر بمناسبة وبلا مناسبة حتى لقد تتكرر اللفظة فى قصيدة واحدة مرات عديدة بلا أدنى مبرر مما كان يجعل لها معنى ممجوجاً ووضعاً مخلاً بنظام الشعر .

ومثل هذا النقد لا ينهض دليلٌ على صحته فضلاً عن وجاهته ، وقوامه المبالغة الظاهرة وتجاهل النزعات المختلفة لكل شاعر . وفى الواقع انّ من خير الأدب وجود هذه النزعات المختلفة لأنها ممّا يكوّن لنا ثروةً شعريةً متعدّدة الجوانب ، فلا معنى لتحويل الشعراء عما تهواه نفوسهم هوايةً خاصةً .

وقال ناقدنا الفاضل إنه لم يتعرض لنواح عدة آثر السكوت عليها كعيوب القافية والروىّ والموازين وعلم الصناعة من بديع وبيان الى آخره ، وحبذا لو تعرض لها لعلنا نستفيد ويستفيد غيرنا كذلك من نقده .

وأراد ناقدنا أن يثبت لنا أنه من المجددين فأظهر اعجابه ببيت أستاذنا مطران فى وصف الجندى التركى :

مِنْ كلّ مركوزٍ على رمحهِ كانه البغتةُ إذْ ينبرى

ودعانا الى احتذاء مطران . ولن يقول بصيرٌ بأن الفنّ الأصيل يقوم على الاحتذاء ولا يقوم على الشخصية الفنية المستقلة .

وأستاذنا مطران آخر من يرضى ذلك ، وأول من ينوّه بابداعنا الخاص فى سنين طويلة .

* * *

والشيء بالشيء يذكر — لقد أخذت طائفةٌ من المتأدبين تحسب أن من النقد الأدبى السخافة فى التهزىء المصطنع فى المجلات العامية ، وزعيم هذه الطائفة الشاعر مصطفى كامل الشناوى الذى يخصنا أصحابه بقسط كبير من اهتمامهم ويعطوننا أمثلة من الذكاء المضيَّع الذى لا يستفيد منه أحد لأنه يتحول الى ألوان من التهريج والبهلوانية . . . . واتفق لأحد أعضاء هذه الطائفة أن قرأ قصيدتنا « جنون » (ص ٨٦ من « أطياف الربيع ») فجنّ جنونه وأخذ يتخبط منذ شهور وما يزال المسكين الى الآن كمن به مَسٌّ من الجنّ : ولا يكاد يمرّ اسبوعٌ الاّ وله نفثة مضحكةٌ فى جريدة من الجرائد الريفية ، وأخيراً انتقل الى مجلة (النهضة الفكرية) التى أفسحت صدرها لكل ما يكتب ضدّنا من مغالطات . . . وهذه هى الابيات التى ذهبت بعقله :

خاصمتَ روحاً حبيباً يَسُحُّ بالشعر سَحّا
وما رعيتَ جمالاً من الجمالِ استَوْحَى
هل كان شعرى سوى ما وَعَيْتُهُ عن وُجُودى
فألَّفَ الفنُّ منه روائعاً للنشيدِ ؟
هل الجداولُ أشْهى من البحورِ وأنقى
حتى تعافَ خضمّاً يعاف حَصْراً ورقّا ؟
هل نغمةُ العُودِ أحلى من مَوكبِ السّمفونِ
حتى ترى ملءَ شِعرى مَظاهراً للجُنونِ ؟
لكنْ حرامٌ سؤالى مَنْ لا يُطيق سؤالى
ومَنْ يَعدّ حياتى شبيهةً بالممات ِ !

و « بيتُ المسّ » هو قولنا :

هل نغمةُ العُودِ أحلى مِنْ مَوكبِ السّمفونِ ؟

فراح صاحبنا الأزهرى (الذى لم يدرِ فى حياته ما هو « السمفون » لا اطلاعاً ولا سماعاً) يتعثر فى الوان سخيفة من الاستهزاء بدل أن يتواضع ويتعلم ويتفهم هذا اللون من الموسيقى العالية وصلتها بمثل ذلك الوصف الشعرى . فأى شجاعة معكوسة فى زمننا هذا ، تلك التى تسمح للأبجديين بهذا التطاول باسم النقد الأدبى وتجد من بعض الصحف طواعيةً لهم ؟ !

* * *

ولا نحبّ أن نختم هذه المجالة بغير الفكاهة الملائمة لأول هذا الشهر المبارك (غرة ابريل) : فقد ذكر أديبٌ حصيفٌ من أصدقاء « روبنسن كروزو » فى جريدة كُتب على غلافها « لسان الاتحاد العربى العام والشرق الأكبر المصرى » مايأتى من كلمة خفيفة الظلّ بعنوان (شعر أبى شادى فى مجالس الأدباء) : —

والأروع من هذا ما ذكره أديبٌ آخر إذ قال : « كلكم تذكرون الشاعر عبدالرحمن شكرى وكيف كان لا يبالى فى اخراج دواوينه وكيف قوبل بالنقد الجارح فى قوله وفى استهتاره بفن لم يكن له أهلاً إلا قليلا . والأدباء يقولون إن عبدالرحمن شكرى ضحّى بأدبه فى شعره الذى لم يخلق له فأراد أن يصون شخصه ولهذا عوّل على أن يحرق دواوينه ما نُشر منها ومالم ينشر فبادر اليه الدكتور أبوشادى وأخذها منه وجعل يخرجها على من يحبّون كشعر له ... فدهشنا فى الحقيقة لهذا القول وشكرنا لعبدالرحمن براءته من شعر قوبل بالزراية واحتفاظه بشخصيته فقط ، ولكنا أنكرنا على أبى شادى انتحاله هذا الشعر أو نسيجه ثم نعينا عليه زرايته بشخصية نفسه» . وزاد أحد الأدباء فى مجلسنا يقول : « ولكنكم لا تسمعون هذه الاشاعة المتداولة مما جاء همساً فى مجالس الأدباء فقد اتصل بى فى غير مجلس ان الدكتور أبا شادى انما جعل ادارته موئلا للشعراء الذين تأبى الصحف نشر قصائدهم فيشترى الواحدة من شعرورٍ بخمسة قروش لينشرها فى مجلة (أبولو) تشجيعاً للشعرور أو ليهذبها بما شاء هو من الاغلاط وينشرها فى ديوان يصدر له . ولهذا فأنتم اذا قرأتم أىَّ أثر لأبى شادى تجدونه مختلف النواحى بين ايمانٍ وكفرٍ وعشقٍ وفجورٍ على العاشق ونصيحة غير محكمة الأسلوب ، على أن شعره مجموعة من شعار بر يزيدها هو اخطاء ويضع عليها بزهو اسم (الدكتور احمد زكى أبوشادى) ... » . فدهشتُ بحقّ لهاتين الروايتين وآمنتُ بأنّ الدكتور احمد زكى أبوشادى جنايةٌ على الأدب ، والشعر وحسبه الله فيهما وهو نعم الوكيل !